

العلاقة بين الفنّ والروحانيّة الإسلاميّين

حسين نصر

ترجمة: طارق عسيلي

الكلمات المفتاحيّة: الفنّ، الروحانيّة، الإسلام، الوحي، الفكر الإسلاميّ، التصوّف، العقل.

يطرح الباحث في هذه الدراسة سؤالاً حول مصدر الفنّ الدينيّ وتحديدًا الفنّ الإسلاميّ لجهة المبادئ التي أوجدته.

ويرى في الإجابة على السؤال أن الفنّ الإسلاميّ يرتبط بالرؤية الكونية التي جاء بها الإسلام، إذ العلاقة بين الفنّ الإسلاميّ والوحي الإلهيّ إنما هي نتيجة للعلاقة العضوية بين الفنّ والعبادة في الإسلام، بين التفكير في الله كما أمر القرآن وبين الطبيعة التفكيرية لهذا الفنّ، بين ذكر الله الذي يشكّل الهدف النهائي للعبادة في الإسلام وبين الدور الذي يلعبه الفنّ التشكيليّ والصوتيّ في حياة الفرد المسلم والأمة. ويخلص إلى الاعتقاد أن الفنّ ما كان ليقدّر على تأدية وظيفة روحية لو لم تكن له علاقة وطيدة مع الوحي من حيث الشكل والمضمون.

إذا نظرنا بعين ثاقبة إلى تجليات الفنّ الإسلاميّ، وتنوعها عبر الزمان والمكان، نتساءل عن المبدأ الذي يوحد

هذا الفنّ.

ما هو مصدر وما هي طبيعة هذا الفنّ الذي يوحد كل هذه التجليات، والذي لا يسعنا إنكار أثره الباهر؟

فسواء كنت في الباحة الواسعة لمسجد دلهي، أو كنت في القيروان بفاس، تشعر أنك في العالم الفنيّ والروحيّ نفسه، رغم كل التنوع الموجود فيه من حيث المواد والتقنيات، وما شابه.

إن خلق عالم فنيّ يتميز بعبقريّة خاصة، وصفات فريدة، وتجانس في المنهج، وتشكيل خصائص حضارة لها

بيئتها الزمانية والجغرافية، لا يمكن أن يكون إلا إذا كان له سبب. فهذه الأبعاد الهائلة لا يعقل أن تكون مجرد

نتيجة للصدفة، أو لتراكم مجموعة من العوامل التاريخية العرّضية.

وإذا أردنا التحدث عن التاريخ والصفات والخصائص المادية لهذا الفنّ نجد من الكتب ما يكفي لملء مكتبة

كاملة بجميع اللغات الأوروبية تقريبًا، إضافة إلى اللغات الإسلامية نفسها، وبعض اللغات كالصينية واليابانية. أما

السؤال عن مصدر هذا الفن الفريد والمقدس . رغم أنه سؤال أساسي . لا يطرح إلا نادراً⁽¹⁾. فنحن نعرف كيف كان التنافس بين التقنيات والتصاميم الساسانية والبيزنطية، وبين التصاميم الرومانية في هندسة المدن، في المراحل الأولى للفن المعماري الإسلامي، وكيف عزفت الموسيقى الساسانية في قصور العباسيين. لكن الحل لمشكلة التواصل عبر القرون والحدود الثقافية . رغم اهتمام تاريخ الفن بها . لم يبين لنا مصدر الفن الإسلامي⁽²⁾، إذ إن هذا الفن يبقى كغيره من الفنون المقدسة، ليس مجرد مواد تستخدم، إنما هو عبارة عن عمل أنتجته التراكمية الدينية وتمت صياغته بهذه المواد.

لا يمكن لأحد أن يساوي بين الكنيسة البيزنطية في اليونان، وبين معبد يوناني، حتى لو كانت الحجارة المستعملة في بناء الكنيسة قد أخذت من ذلك المعبد نفسه. فالحجارة صارت أجزاء صرح ينتمي إلى عالم ديني مختلف تمامًا عن ذلك الموجود في اليونان القديمة. وبنفس الطريقة ملئ المسجد الأموي في الشام بحضور يعكس ما يكتنفه من روحانية، ليست سوى الإسلام مهما كانت المصادر التاريخية لذلك البناء⁽³⁾.

كما ان السؤال عن مصدر الفن الإسلامي، وعن طبيعة القوى والمبادئ التي أوجدته، ينبغي أن يرتبط بالرؤية الكونية الإسلامية، والوحي الإسلامي، الذي تشكل إشعاعاته المباشرة الفن الإسلامي المقدس، وغير المباشرة تشكل الفن الإسلامي كله.

(1) قد يقال: إن نفس الشيء ينطبق على الفن المسيحي أو البوذي، ولكن الحال ليست كما هي عند البحث في الفن الإسلامي؛ حيث نجد إهمال العامل الديني والروحي في الفن أكثر شمولية وعمومية.

(2) يجب أن نميز بين الفن الإسلامي المقدس والفن التقليدي الإسلامي. فالفن المقدس يرتبط مباشرة بالممارسات الدينية المباشرة والمركزية وممارسة الحياة الروحية، شمول فنون كالخط، وعمارة المساجد، وترتيل القرآن، بينما في الفن الإسلامي التقليدي تسجل كل أشكال الفنون النظرية والصوتية من المناظر الطبيعية إلى الشعر وكل ما هو تقليدي، ويعكس أيضًا مبادئ الوحي الإسلامي والروحانية الإسلامية، ولكن بطريقة مباشرة، وبمعنى من المعاني الفن المقدس قلب الفن التقليدي عاكسًا بطريقة مباشرة مبادئ ومعايير تنعكس بطريقة غير مباشرة في حقل الفن التقليدي بمجمله.

(3) إذا اعترض البعض بالإشارة إلى الدوافع الكلاسيكية في القصور الأموية أو الفسيفساء البيزنطية في الجوامع الأموية نفسها، عليهم أن يتذكروا أن أول شيء بالنسبة للإسلام، كما في الأديان الأخرى كلها، تطلب المر شيئًا من الوقت لكي تظهر الأشكال الأنقى من الفن المقدس. ثانيًا: حتى في الفنون التقليدية قد توجد هنا وهناك أشكال ودوافع تنتمي إلى عالم غريب، ولكن هذه الأشكال تبقى عرضية وليست جوهرية ولا تغير الطبيعة الأساسية للفن.

إن العلاقة السببية بين الفن الإسلامي والوحي الإسلامي نشأت نتيجة للعلاقة العضوية بين الفن والعبادة في الإسلام، بين التفكير في الله كما أمر القرآن وبين الطبيعة التفكيرية لهذا الفن، بين ذكر الله الذي يشكل الهدف النهائي للعبادة في الإسلام وبين الدور الذي يلعبه الفن التشكيلي والصوتي في حياة الفرد المسلم وحياة الأمة ككل.

ما كان هذا الفن ليقدر على تأدية وظيفة روحية لو لم تكن علاقته مع الوحي حميمة من حيث الشكل والمضمون.

قد يدعن البعض بوجود علاقة كهذه، ومع ذلك فهم يبحثون عن مصدر الفن الإسلامي في الظروف السوسيو. بوليتيكية التي أوجدها الإسلام. لكن هذه النظرة حديثة بكليتها وليست إسلامية حتى لو تبناها بعض المسلمين، فهي ترى المصدر الداخلي في الخارجي، وتختزل الفن المقدس الصادر عن طاقة داخلية بالمصادر الخارجية والاجتماعية. وبحسب المؤرخين الماركسيين. بالظروف والعوامل الاقتصادية. وهذا ما يمكن رفضه بسهولة من قبل الفلاسفة والمتكلمين المسلمين الذين يعتقدون أن الله هو مصدر كل الصور أو الفعليات⁽⁴⁾، وهو العالم بكل شيء، إذ إن كل الصور موجودة في العقل القدسي. غير أن الفكر الإسلامي لا يسمح باختزال الأعلى بالأدنى، أي العقلي بالجسمي أو المقدس بالأرضي. وحتى من وجهة نظر غير إسلامية، فإن طبيعة الفن الإسلامي والمعارف والإدراكات الضرورية لإيجاده، يتضح للمراقب غير المنحاز. الذي لم تعمه الأيديولوجيات المختلفة التي تستعرض كمنظريات للاستهلاك وللحلول مكان التقاليد الدينية. أنه مهما كانت العلاقة بين الوحي والفن الإسلامي - إن الفن ليس بهذه البساطة مجرد أثر للتغيرات السوسيو. بوليتيكية التي أتى بها الإسلام⁽⁵⁾، إذن علينا أن نبحث عن الجواب في الدين الإسلامي نفسه.

⁽⁴⁾ استعملنا كلمة "صوره" في هذا الكتاب بالمعنى التقليدي الذي استخدمه AK coomaswamy في دراساته العديدة حول الفن التقليدي.

⁽⁵⁾ هذا طبعاً لا يعني أن هذه العوامل لا أهمية لها في التشجيع والدعم أو الانتشار أو العكس، أو في ازدهار أو اندثار بعض الفنون في العالم الإسلامي بدون - مثلاً - تشجيع الصفويين لم تكن لتوجه تلك النوعية من السجاد الصفوي لولا المشاغل الأميرية في أصفهان. ولكن لا نستطيع القول إن هذا الدعم هو الذي أوجد هذا الفن المتميز حتى في شكله الصفوي المتميز.

يتشكل الإسلام من: شريعة وطريقة وحقيقة، والحقيقة هي منبع الشريعة والطريقة⁽⁶⁾، كما أن للإسلام عدة أوجه علمية مثل: الفقه، والكلام، والفلسفة... وعند تحليل الإسلام إلى هذه الحثيات نلاحظ أن الشريعة ليست مصدرًا للفن؛ فالشريعة تحدد العلاقة بين الله والإنسان والمجتمع على المستوى العملي. وتلعب الشريعة دورًا بغاية الأهمية في إيجاد الخلفية للفن الإسلامي، وفي الحد من بعض الفنون وتشجيع بعضها الآخر، بيد أن تعليمات الشريعة في الأساس حول كيفية سلوك الإنسان، وليست حول كيفية صنع الأشياء. فدور الشريعة في الفن. إلى جانب تزويده بالخلفية الاجتماعية العامة-، هو إشباع روح الفنان بالمواقف والفضائل النابعة من القرآن الكريم والحديث والسنة⁽⁷⁾. وليس لتوفير مرشد لإيجاد فن كالفن الموجود في الإسلام.

ولا يمكن اكتشاف مصادر الفن الإسلامي في علم الفقه المرتبط بالشريعة أو في علم الكلام المتعلق بالدفاع عن المعتقدات الإسلامية والتعريف بها وشرحها. قد نجد بعض من كتبوا عن الجمال من المتكلمين كالغزالي، أو بعض الفقهاء المهندسين كالشيخ بهاء الدين العاملي، لكننا لا نجد مسائل كلامية أو فقهية معروفة اهتمت بتسليط الضوء على مسألة الفن والجماليات في الإسلام⁽⁸⁾. إضافة إلى أن الكثير من الروائع الفنية الإسلامية التي ابتكرت قبل هذه العلوم (الكلام والفقه) أصبحت مصنفة ومقبولة ومعترفًا بها، كباقي الأعمال التي أنتجت في هذه الحقول.

إذا أردنا البحث عن مصدر الفن الإسلامي، علينا أن نلجأ إلى البعد الباطني في الإسلام، إلى الباطن المحتوى في الطريقة والمفسر بالحقيقة. وهذا البعد الباطني متصل بالروحانية الإسلامية ولا يمكن أن ينفصل عنها. ترتبط عبارة الروحانية في اللغات الإسلامية بعبارة الروح أو المعنى⁽⁹⁾. وفي الحالتين تتضمن العبارتان معنى "البطون". فالبحث عن مصدر الفن الإسلامي يجب أن يكون في الأبعاد الباطنية للتقاليد الإسلامية، حيث تكمن الطاقة التي أوجدته وآزرته على مر العصور. وهذه الباطنية هي التي جعلت وحدة الفن الإسلامي ممكنة.

⁽⁶⁾ انظر: Ideals and realities of islam، للسيد حسين نصر، لندن، 1985.

⁽⁷⁾ يعني أقوال وأحوال وعادات النبي.

⁽⁸⁾ هذه العبارة مستخدمة في معنى فلسفة الفن وليست محدودة بمعناها اللغوي كونها متعلقة بالحواس.

⁽⁹⁾ اللغة الأكثر استعمالاً في اللغة العربية والتي تقابل Spirituality هي: روحانية، وفي الفارسية: المعنويات، يتحدث الرومي

دائمًا عن المظهر الخارجي للشيء كصوته وعن حقيقته الباطنية كمعنى.

المصدران التوأمين للروحانية الإسلامية هما: القرآن بحقيقته الباطنية وحضوره المقدس، ونفس النبي التي بقيت كحضور لا مرئي في العالم الإسلامي، ليس من خلال حديثه وسنته فحسب، بل بطريقة غير ملموسة في قلوب أولئك الذين بحثوا وما زالوا عن الله، وفي نفس الهواء الذي يتنفسه أولئك الذين يتوسلون باسمه المبارك. ثم ينبغي البحث عن مصدر الفن الإسلامي في حقائق القرآن التي هي حقائق الكون، والحقيقة الروحية للوجود النبوي التي تفيض منها البركات المحمدية.

يزودنا القرآن بتعليم التوحيد بينما يزودنا النبي بتحليلات الوحدة في الكثرة، وتجلي هذه الوحدة في الخلق. فمن ذا الذي يستطيع أن يشهد أن لا إله إلا الله ويفصلها عن محمد رسول صلى الله عليه وعلى آله (10)؟ وحيث حلت البركة المحمدية وما زالت تحل، يجب أن يبحث عن مصدر الأفعال الإبداعية التي جعلت الفن الإسلامي المقدس ممكنًا؛ لأنه فقط بفضل تلك البركة أمكن تبلور عالم الصور، والزمان والمكان، والحقائق الباطنية للقرآن الكريم.

أليس مدعاة للعجب أنَّ أعظم الفنانين المسلمين عبّروا على الدوام عن حبههم وإخلاصهم للنبي، وللنبي وأهل بيته في حال كانوا شيعة، وأنه في الإسلام الشيعي والسني على السواء يمثل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أكثر من أي صحابي آخر البعد الباطني للرسالة الإسلامية، ويعتبر المؤسس للعديد من الفنون الأساسية كالخط وأصناف الفتوات؟ هذا وإن ربط الفن الإسلامي بالبعد الباطني للإسلام لم يكن ليظهر للخارج في حالة أفضل دون الإشارة إلى الدور الذي لعبه علي عليه السلام وفتوات الحرفيين الذين أنتجوا فنًا إسلاميًا، بالإضافة للطرق الصوفية التي تمثل القيم على التعاليم الباطنية الإسلامية.

بدون هذين المنبعين والمصدرين، القرآن والبركة النبوية ما كان للفن الإسلامي أن يوجد. فالفن في الإسلام هو فن إسلامي، ليس لأن واجديه مسلمون فحسب، بل لأنه انبثق عن الوحي كما انبثقت الشريعة والطريقة. وقد تبلور هذا الفن في عالم صور الحقائق الباطنية للوحي الإسلامي. ولأنه ينبثق من البعد الباطني للإسلام فهو يوصل الإنسان إلى المكمن الباطني للوحي الإلهي، ولأنه ثمرة الروحانية الإسلامية من وجهة نظر واجديه، يمثل المساعد والداعم والمكمل للحياة الروحية في نقطة التحقق الفضلى والعودة إلى الأصول.

(10) الشهاداتتان في الإسلام هما: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

ما الفن الإسلامي إلا نتيجة لتجلي الوحدة على صحيفة الكثرة، وهو يعكس في حالة محجوبة الوحدة الإلهية، كما أنه يعكس تعلق كل الكثرات بالواحد، وسرعة زوال العالم، والصفات الثبوتية للوجود أو الخلق التي يؤكد عليها القرآن الكريم {ربنا ما خلقت هذا باطلاً} (111: 191).

يُظهر الفن الإسلامي، في العالم الطبيعي المدرك بالحواس مباشرة، الحقائق والوقائع المثالية، وهو بمثابة جسر لسفر النفس من عالم المرئي والمسموع إلى العالم اللامرئي حيث ينبثق الفن الإسلامي من الروحانية الإسلامية مباشرة، وحيث يكون مصاعاً بالخصائص الجزئية الموجودة في وعاء الوحي القرآني، ذلك العالم المتعالي الذي عم الإسلام سماته الإيجابية⁽¹¹⁾. لكن هذه الصلة بالوحي الإسلامي، لا تقلل من حقيقة أن مصدر هذا الفن يكمن في المحتوى الباطني والبعد الروحي للإسلام.

إن الذين ابتكروا الروائع الفنية الإسلامية على مر العصور، إنما فعلوا ذلك إما بقدرتهم على رؤية عالم المثال التي وفر وسائلها الوحي الإسلامي والبركة المحمدية، وإما تم تعليمه وتوجيهه من قبل من كان لهم هكذا رؤية.

إن الفردية التي يتميز بها الفن الإسلامي لم تكن لتوجد بمجرد إبداعات وإلهامات فردية؛ فالأمر العام لا ينتج إلا عن أمرٍ عام. وإذا كان الفن الإسلامي يوصل إلى الممكن الباطني للتقاليد الإسلامية، فهذا لأن الفن الإسلامي رسالة من ذلك الممكن الباطني، أرسلت إلى أولئك المؤهلين للإصغاء لرسالته التحريرية، ولترويض مناخ من السلام والتوازن للمجتمع ككل ينسجم مع طبيعة الإسلام، لإيجاد محيط يذكر فيه الله أينما يولى. ألم يؤكد القرآن على أنه {أينما تولوا فثم وجه الله}؟ (11: 18).

يرتكز الفن الإسلامي على العلم ذي الطبيعة الروحية، العلم الذي يسميه أساتذة الفن التقليديون حكمة⁽¹²⁾. وبما أن في التقاليد الإسلامية بنموذجها العرفاني في الروحانية، لا فصل بين العقلانية والروحانية، وأنها وجهان لحقيقة واحدة، فالحقيقة التي يركز عليها الفن ليست سوى الوجه الحكمي للحقيقة الروحانية نفسها. والقول المأثور عن القديس توما: *ars sine scientia nihil* (الفن علم مقدس) يلائم وبوضوح الفن الإسلامي، هذا الفن الذي يركز على علم ذي طبيعة باطنية لا تهتم بالمظهر الخارجي للأشياء بقدر ما تهتم بحقائقها الباطنية. كذلك يظهر الفن الإسلامي بمساعدة هذا العلم وبفضل البركة المحمدية، حقائق الأشياء

(11) انظر: Burckhardt، ص 39 FF.

(12) انظر: Burckhardt، ص 196 FF.

الموجودة في خزائن الغيب على الصحيفة الخارجية للوجود الجسماني. فإذا لاحظنا مدخل صرح كمسجد الشاه؟؟؟
بنماذجه الهندسية الرائعة وزخارفة العربية، نشهد لهذه الحقيقة، عندما نتأمل العالم العقلي في العالم الحسي، وعندما
نستمع إلى أنغام الموسيقى الفارسية أو العربية، كأننا نستمع إلى أنغام الأبدية التي تنتشي بها النفس في رحلتها
الدينيوية الموجزة.

الخاصية العقلية التي لا يمكن إنكارها في الفن الإسلامي، ليست ثمرة نوع من العقلانية، لكنها ثمرة الرؤية
العقلية لعالم مثال العالم الأرضي، رؤية أصبحت ممكنة ببركة الروحانية الإسلامية، والنعمة التي تفيض من التقاليد
الإسلامية. ما يقدمه الفن الإسلامي ليس تقليدًا لنماذج الطبيعة الخارجية، بل هو إنعكاس لمبادئها، لأن الفن
الإسلامي يركز على علم ليس ثمرة للعقلانية أو التجريبية، بل على علم مقدس Scientia Sacra لا يمكن
الوصول إليه إلا بفضل الوسائل التي زودته به التقاليد الإسلامية. والأمر ليس عرضيًا أنه كلما أو حيثما وصل
الفن الإسلامي إلى أوج إبداعه وكماله يتصاحب مع وجود تيار عقلانية حية. يعني روحانية أيضًا. للتقاليد
الإسلامية. وعلى العكس فإن هذه الرابطة السببية تزودنا بفهم سبب كلما كان هناك انحدار أو تدنُّ في البعد
الروحي للإسلام، كلما كان هناك تدنُّ في نوعية الفن الإسلامي.

أما في العالم الإسلامي الحديث، فقد تلاشى الفن، بنفس المستوى الذي أهملت فيه الروحانية والعقلانية التي
كان يستمد منها مصدر قوته وحضوره.

في بعض مراحل التاريخ الإسلامي، قدمت المصادر المكتوبة براهين واضحة على العلاقة بين الروحانية
والعقلانية من جهة وبين الفن من جهة أخرى، بينما نجد في حالات عديدة أخرى أن التقاليد الشفوية لم تترك
أي أثر مكتوب يمكن الرجوع إليه لدراسة هذه العلاقة بالتفصيل. مثال الحالة الأولى: هي مرحلة العهد الصفوي
في إيران التي تمثل واحدة من أهم المراحل الإبداعية للفن الإسلامي والمتفزيقا والفلسفة الإسلامية. وإذا درسنا
تعاليم عالم الخيال عن كذب⁽¹³⁾، في كتابات الأساتذة الكبار أمثال صدر الدين الشيرازي⁽¹⁴⁾، نرى أن العلاقة
المتبادلة بين التعاليم الميتافيزيقية والطبيعية موجودة، وأن فن هذه المرحلة لم يقتصر على المنمنمات، بل شمل الشعر

⁽¹³⁾ إن كلمة خيالي لا تعني الوهمي أو ما له علاقة بالخيال كما هو مصطلح في التعبير الحديث، رغم أن كلمة خيال نفسها يمكن
تعريفها لتنسجم مع معناها القديم المختلف عن التخيل.

⁽¹⁴⁾ درس كوربان هذا التعليم بشكل مكثف في كتابه: Spirituol body and celestiol eorth الذي ترجمه N. peorson.
Princeton و1977.

والموسيقى وحتى الهندسة المعمارية⁽¹⁵⁾. وهذه العلاقة لا تتضمن انحرافاً عن المعايير، ولكنها تتضمن مثلاً تشبيهاً لمبدأ عام يسمح بفهم هذه العلاقة الأساسية. إذا وجدت أوجه أو فصول جديدة في الفن الإسلامي، - لا يعني في ضوء هذه العلاقة- أي تغير في الروحانية الإسلامية، لكنه يظهر التطبيق المستمر لمبادئ التقاليد الحية في الظروف والأوضاع المختلفة.

ولكي نصور بشكل أوضح العلاقة المباشرة بين الفن الإسلامي، والروحانية الإسلامية، لابد من الرجوع إلى مسألة الفنون التمثيلية. فبسبب طبيعة الدين الإسلامي الذي لا يوجد فيه توتر مسرحي بين الأرض والسماء، ولا يركز على فكرة التضحية البطولية والفداء والشفاعة المقدسة وبسبب خصائص هذا الدين البعيدة عن كل خرافة، لم يتطور المسرح الديني والمقدس في الإسلام، كما في اليونان القديمة والهند أو حتى في أوروبا القرون الوسطى؛ لكن حيث دخلت العناصر العاطفية والدراما إلى المنظور الإسلامي، وأصبحت وجهًا من أوجه الروحانية الإسلامية، وبالتحديد في التشيع، نجد أن التعزية تطورت في فارس الصفوية والقاجارية وفي الهند المنغولية وبعد المنغولية⁽¹⁶⁾. كما أن إبداع هذا الشكل من الفنون، رغم أنه ليس مركزياً في الإسلام وحتى أنه ليس فناً مقدساً، لكنه ديني بكل ما للكلمة من معنى⁽¹⁷⁾. وهو يشير إلى الصلة بين الروحانية الإسلامية والفن الإسلامي ليس في مظاهره الكبرى كالخط والهندسة فحسب، ولكن في فروعه الجزئية والمحدودة كما في العاطفة الشيعية التي تتجلى في مجالس العزاء والمسرح العاشورائي، حيث تظهر بشكل مباشر مشاعر الحزن والألم الشيعية.

الروحانية الإسلامية متعلقة طبعاً بالفن الإسلامي، وذلك من خلال الشخصية الإسلامية التي صاغتها الطقوس والعبادات، من الصلوات اليومية التي تخترق النهار والليل، وتخرق بانتظام أحلام اليقظة، والقرب من الطبيعة العذراء التي تمثل المسجد الأصلي الذي لا ينافسه إلا المساجد الموجودة في القرى والمدن، والاستشهاد المتواصل بالقرآن على الحقائق الأخروية، وعلى هشاشة هذا العالم، وتكرار آيات القرآن الكريم التي تشبع نفس المسلم بالمواقف الروحية ذات التنوع الفسيفسائي، والتأكيد على عظمة الله التي لا تسمح بأي نوع من التمرد

⁽¹⁵⁾ انظر: J During World of music "music poetry and the visual arts in persias" ج14، 1982، ص 72 . 82 . 72 . 6 . imaginal dimension and orts of iran، World of music، الجزء 19، 1977، الصفحة 24 . 34.

⁽¹⁶⁾ للمزيد حول التعزية، أنظر:

و P. chelkowski 1979.Ta'ziych: ritual and Drama in Iran New york

⁽¹⁷⁾ هذا ما عارضه العلماء الشيعة المهتمون بعلم الباطن.

البشري، أو أي عوامل أخرى ذات صلة بعبقرية الإسلام الخاصة التي صاغت عقول ونفوس المسلمين. وكذلك أثرت الروحانية الإسلامية من خلال تثقيف وتدريب الإنسان كمسلم وكعبد لله وخليفة لله باصطلاح القرآن، على الفن الإسلامي مباشرة، بتأصيل بعض المواقف والإمكانات في عقول ونفوس موجدي هذا الفن.

إذا شعر المسلم التقليدي أن التماثيل الهائلة لمايكل أنجلو تتهاوى وأن كنائس روكوكو تختفي، فذاك بسبب شعوره بالتسليم لله الذي أوجدته فيه الروحانية الإسلامية، وخوفه من تجبر النفس البشرية على حساب الحضور الإلهي. هذا لا يعني أن المسلم لا يستطيع ابتكار فن عملاق كما يُدعى في عصر الحداثة، فالمسلم لا يستطيع فعل ذلك طالما أن بصمات الروحانية الإسلامية في نفسه ما زالت قوية.

إن ما يأتي من الواحد هو الذي يوصل إلى الواحد. فإذا أدت الطبيعة العذراء دور المساعد على ذكر الله، هذا لأن خالقها هو الصانع الإلهي، والصانع اسم من أسماء الله، وإذا لعب الفن الإسلامي دور المساعد على ذكر الواحد هذا لأنه. رغم أنه صنع البشر. يُستمد من إلهام إلهي ومن حكمة صادرة من عنده.

لو استطاع أكثر الروحانيين موهبة بين المسلمين أن يصلوا إلى النشوة الروحية من خلال الاستماع إلى قصيدة عربية أو فارسية، أو من خلال سماع أغنية، أو التأمل في مقطوعة من الخط العربي، فهذا الوصول يكون بسبب الرابطة الباطنية بين هذه الفنون والروحانية الإسلامية، إذ لا يمكن أن يوجد مثل هذا المدد الروحي الذي يزوده الفن الإسلامي لاحتياجات النفس ولعالم الروح إلا من خلال الارتباط الباطني بينه وبين الروحانية الإسلامية. إذا كان ثمة حاجة لدليل خارجي على العلاقة بين الفن الإسلامي والروحانية الإسلامية، يمكن أن نجد هذا الدليل في الدور الذي يلعبه هذا الفن في المساعدة على إحداث الحال الروحية التي هي نعمة من السماء، وفي موقف من هم أقرب إلى قلب الروحانية الإسلامية لهذا الفن بكل تجلياته. وقد تكفي هذه العلاقة للتقليل من أهمية حجج من يعتبرون الفن الإسلامي مجرد نتاج لعوامل تاريخية خارجية لا صلة لها بالمنابع الروحية للوحي الإسلامي.

وأخيراً، في سياق النقاش حول العلاقة بين الفن الإسلامي والروحانية الإسلامية، هناك ما لا بد من قوله عن رعاية هذا الفن، لأن ما يفهمه الغربيون من الروحانية الإسلامية غالبًا ما يكون في سياق الانقسام بين المقدس والعلماني، الذي تميزت به الحضارة الغربية.

قد يسأل البعض: إذا كانت هناك علاقة بين الفن الإسلامي والروحانية الإسلامية لماذا لم تلق بعض أشكال الفن الإسلامي أي نوع من العناية والرعاية من السلطات الدينية أو "المساجد"، بينما اعتنت بها الطبقات الحاكمة والقصور الملكية أو التجار التي تعرف عادة بالعلمانية في التاريخ الأوروبي؟ وبالإجابة عن هذا السؤال علينا أن نشير أولاً إلى أنه لا يوجد أي ثنائية بين الدين والحياة المدنية في الإسلام.

وإن ما يمكن أن يسمى قوى أو عناصر علمانية في المجتمع الإسلامي، كان له على الدوام نفس الأهمية الدينية الموجودة في العناصر الدينية الخاصة ضمن القانون الإلهي الأكثر شمولية.

ثانيًا: هناك علاقة أدق تكشف في مسألة رعاية، واستخدام، ووظيفة الفن، علاقة تركز على التكامل بين ما يمكن أن نسميه باختصار: المسجد والبلاط.

هناك بعض الفنون التي يمكن القول إنها صدرت من المسجد، بالمعنى العام لكونه مركزًا للنشاط الديني. فنون مثل ترتيل القرآن، والهندسة المعمارية المقدسة، والخط، خاصة الكوفي منه الأكثر فنية وأهمية حيث يشكل نموذج الخط الديني. وهناك فنون أخرى كالموسيقى والشعر ورسم المنمنمات التي رعتها واهتمت بها القصور، مع أنها وصلت إلى المجتمع كله. إضافة إلى وبشيء من التناقض. أن النموذج الأول للفنون يمثل النموذج الأكثر "ذكورية"، ويمثل الثاني النموذج الأكثر "أنثوية". مثالاً: فن الخط الذي شجعه ورعاه البلاط والأرسطوقراطية الحاكمة هو الخط ذو الخصائص اللطيفة والأنثوية؛ بينما الخط الأكثر ذكورية ونبالة كان على صلة بالمسجد. والحالة الإستثنائية تكون عندما يرعى البلاط نفسه بناء المساجد والمؤسسات الدينية⁽¹⁸⁾.

هناك عنصر ثالث، يجب أن يؤخذ بالاعتبار وهو بمفرده يفسر الخصائص الروحية لفنون البلاط، وهو التصوف. رغم ارتباط المتصوفين الطبيعي بالمسجد في دفاعهم عن الشريعة، ومنهم العديد من العلماء، كانوا على صلة وثيقة بالسلطة السياسية، ليس باستسلامهم للسلطة الدنيوية ومظاهرها أو بتأليف القصائد المدحية للسلطة، ولكن بتزويدهم إرشادًا روحيًا وأمثلة وعبرًا لأولئك الذين يسيطرون على السلطة؛ بينما بعض الفرق الصوفية بقيت بمعزل عن السلطة السياسية، سمحت فرق أخرى لأعضائها بقبول أعلى المراكز⁽¹⁹⁾. على كل حال كان التأثير

(18) نحن لا نوافق على هذا التقسيم، بل نميل إلى القول بالتكامل، فهناك الكثير من الشواذات عند الطرفين.

(19) لا حاجة للقول إن التصوف أوجد منه الخاص مستقلاً عن البلاط والمسجد، كما نرى في الشعر الصوفي، والموسيقى، والرقص المقدس. وكذلك زود التصوف فتوات الحرفيين من خلال ارتباطها بالفرق الصوفية بالحكمة والبركة المحمدية التي جعلت فن

الصوفي قوبًا في حقل الفنون التي رعتها بعض القصور، ويكفي أن ندرس الخلفية الدينية للعديد من رسامي المنمنمات والموسيقيين في الممالك الصفوية والعثمانية والمغولية، لنعرف هذه الحقيقة. فالفنون "الأنثوية" المدعومة من قبل البلاط هي داخلية في صميم طبيعتها وذات خصائص روحية عالية، وتمتلك سمات روحية لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال وجود تأثير علم الباطن الإسلامي، من خلال تكامل باطني بين المسجد والبلاط؛ ساهم كلاهما في خلق أشكال من الفن الإسلامي ذي الطبيعة التكاملية وأحيانًا يدمج إبداع أعمال فردية كالمساجد الملكية التي يمثل بعضها أعظم روائع الفن الإسلامي.

بقدر ما ندخل في أهمية الفن الإسلامي، بقدر ما ندرك العلاقة الأعمق بين هذا الفن وبين الروحانية الإسلامية؛ سواء رعاها البلاط أو المسجد وسواء استفاد منها العلماء المسلمون أو الأمراء، التجار أو القرويون أو الفلاحون، فإن الفن التقليدي الإسلامي أبدع بإلهام صدر بشكل نهائي عن البركة المحمدية وبمساعدة الحكمة التي تسكن في الأبعاد الباطنية للقرآن الكريم. لكي نعي بشكل كامل أهمية الفن الإسلامي، علينا وعي أنه مظهر من مظاهر الوحي الإسلامي، وعرض للحقائق الإلهية على صحيفة التجليات المادية كي تحمل الإنسان على أجنحة جماله المحرر/لتوصله إلى مسكنه الأصلي في جوار الله.